حول قضية الكتابة والكاتب:

المفهوم والوظيفة، وعلاقتهما بالعملية الاجتماعية

-١-

لعله من باب تحصيل الحاصل القول: إن الكتابة فعالية يقوم بها الكاتب، أديباً كان أم باحثاً أم مؤرخاً أم ناقداً أم مفكراً أم فيلسوفاً.. إلى آخره، حيث هو يدوّن تمثّلاته لطبيعة الوجود الإنساني ومعناه، ولآفاقه وغاياته ووسائله.. وداخل ذلك التدوين يسجل عواطفه ورغباته وانفعالاته الذاتية تجاه مختلف القضايا التي تثيرها كيفية تلك التمثّلات. وكل ذلك خاضع لشروط مركبة من معطيات الزمان والمكان.

وببعض التبسيط، يمكننا أن نلاحظ أن فعالية الكتابة تتم، حسب وعينا لها الآن:

أ- بالانطلاق من الخاص إلى العام، أو بالأحرى: من الذاتي إلى الموضوعي، أو مما هو فردي إلى ماهو إنساني كلّيّ: ولكن عبر مجموع من الحلقات الوسيطة التي يمكن أن نسميها عموماً: (الاجتماعي).

ب- بالاستناد إلى مواريث ثقافية /تاريخية مركّبة، خاصة بماضي المجتمع والأمة اللذين ينتمي إليهما الكاتب لكنها مواريث مستمرة في الحياة بأشكال كثيرة جداً في سياق الواقع الراهن. فمن جهة نجد اللغة والأفكار

والمفهومات والاعتقادات والتصورات المختلفة.. ومن جهة أخرى نجد أنساقاً من الرموز الماضوية الحية أو القابلة للامتلاء بالحياة وفق التغيرات والتطورات المستجدة في الواقع القائم. وهي –أي أنساق الرموز– تحمل اللغة والأفكار والمفهومات والاعتقادات والتصورات في نسيج من العلاقات المشتبكة العميقة والواسعة والمعقدة إلى حد يصعب معه فصل أي طرف عن الآخر.

والمواريث ذات طبيعة جدلية وجدالية في ذاتها.. وهي كذلك في علاقاتها –كمجموع– بحركة الراهن وتعبيراته الكتابية المستندة عليها أساساً. وتلك المواريث هي –في كلّيتها– ما نسميه (البنيان الثقافي) الخاص بأمةٍ ما ومجتمعٍ ما.. ولكل بنيان ثوابتُهُ الأولية التي انبثقت بدئياً –وتنامت تطورياً– من محاولات الإجابة على أسئلة الوجود وتحديات البقاء. فهي إذاً (حاملٌ) لأسس الرؤيات الشاملة لأفراد الجماعة الواحدة، وللجماعة كهيئة مجتمعية مترسخة التجربة في المكان والزمان. ومن تلك الرؤيات، وفيها وبها، تتكون السيكولوجيات، بمستوياتها المختلفة، كما تنبثق عنها منظومات القيم الضابطة للسلوكات وللعلاقات المتبادلة داخل المجتمع وخارجه.

وبشكلٍ ما تتعالى الثوابت الأولية للبنيان الثقافي العام على التأثر الجذري بسيرورة الزمان الاجتماعي خلال التاريخ. وهي قد تبدي نكوصاً ظاهرياً خلال إحدى تجاربه الكبرى، غير أنها سرعان ما تعود لتُكيِّف النتائجَ وتتمظهر متكيفة –بهذا القدر أو ذاك– مع الظواهر الجديدة، في آفاق جديدة.

وفي تلك الثوابت الأولية يظهر مبدأ (الهوية)، مثلما يقع ما نسميه (المشترك الإنساني الأعلى)، وهما طرفان يربطان، بطرق مختلفة، بين ماهو فردي فاجتماعي من جهة، وبين ماهو إنساني شمولي من جهة أخرى، فتصبح إمكانية التعامل والتفاعل قائمة ومتاحة بين المجتمعات الإنسانية المختلفة، بوسائلها وأساليبها المختلفة.

جـ-يتمّ فعل الكتابة عموماً في شروط المثاقفة، أي في شروط التأثر والتأثير بمختلف الثقافات العالمية، ودائماً: في أطر صراعات عامة تظهر فيها ثقافة مهيمنة، بينما تقع بقية الثقافات البشرية في حيّز التبعية بهذا القدر أو ذاك.

إن هذا كله يدل على أن فعالية الكتابة مشروطة بكيفيات تمثّل الكاتب للشروط المركبة في العملية الاجتماعية ضمن سيرورة الوضع الحضاري الإنساني الكلّي، والمتّسم بالصراع المستمر في حركته، خفياً كان هذا الصراع أم معلناً، وبما يكاد لا يحصر من أشكال وصيغ.. وفي الوقت ذاته تبدو هذه الفعالية -فعالية الكتابة- ذات وظيفة في نهاية المطاف، شاء صاحبها ذلك أم أباه.

ولأن كلاً من العمليتين: الاجتماعية الخاصة، والإنسانية العامة أو العالمية، هي عملية حركية متغيرة الشروط والفواعل بصورة واسعة.. وهي في الظروف الراهنة سريعة التواتر، بصرف النظر عن مستوى الديناميكية وتفاوتاته بين العمليتين وبصرف النظر عن حدود الهيمنة والتبعية ومستوياتهما وكيفيات تمظهرهما، وبصرف النظر عن طبيعة منعكسات ذلك كله على الكاتب أياً كان، فإن عملية الكتابة لابد لها من أن تصبح حركية

بدورها، أي قابلة لتغير مفهومها ووظائفها ووسائلها تغيراً يجعلها متكيفة مع المقتضيات والمتطلبات التي تستدعيها الاستجابة السليمة للتغيرات الإجمالية الجارية!.. وكل هذا الذي أوردناه، وكثير مما سيتلوه، هو –مرة أخرى– مرتبط بطرائق إدراكنا الآن لطبيعة عملية الكتابة.

-٢-

وبعدما تقدم، يمكن القول: إن الكتابة هي فعالية ضبط وتنسيق إبداعي وفكري للأداء الثقافي عموماً. وهي بالتالي – وفي الظروف الراهنة– نوع من (الصناعة) بالنظر إلى وسائل إنتاج أهم أجناسها، وإلى (تسويقها)، مع وجوب الانتباه التام إلى كلمة (تسويق) هذه كطريقة إرسال إبلاغي.. وهي، من حيث وظيفتها، مساهمة في عملية صنع وعي عام، وتذوق جمالي، ونهوض قيمي.. لها جمعاً من الديناميكية ما يجعل الإمكانيات الاجتماعية والفردية، المادية منها الروحية، قادرة على مواجهة التحديات المختلفة، إضافة إلى ما يُعين عليه من تقدم على الصعيد الحياتي الإجمالي. ومن دون ذلك تسقط الكتابة في الهذر، وتمتنع عن أن تكون هي نفسها.

ويقودنا هذا، وبإيجاز، إلى ملاحظة حدوث تنوعاتٍ مستجدة، كبيرة وواسعة، لا في طبيعة عملية الكتابة وحسب بل أيضاً في مفهومها، ووسائلها، ووظائفها، ومعايير تقييمها دلالياً وجمالياً.. إلى آخره.

وهذا بدوره يستجر تساؤلاً يبدو لنا مشروعاً جداً:

–ما الذي كان قبلاً في ذلك كله، كيما نعاير عليه هذه التنوعات المستجدة، فنرسم حدوداً صحيحة بين ما كان وماهو

قائم، وما يجب أن يكون، في عملية الكتابة؟

غير أن الإجابة على هذا التساؤل ليست بين أهدافنا هنا، ذلك أننا لا نرمي من وراء ما نعرض له الآن إلى تقديم عرض تاريخي لتغيرات مفهوم الكتابة وطبيعتها وأساليبها ووظائفها في العالم أو في تاريخنا العربي القديم، فذلك أمر نعترف بأنه فوق طاقاتنا وإمكانياتنا.. كما أن ما سبق لنا بسطه في سياق محاولتنا تعريف الكتابة، وتحديد مرجعياتها واستهدافاتها، إنما يعني كيفية فهمنا لها في ظروفنا العربية عموماً خلال القرن العشرين المنصرم، وعلى وجه الدقة: خلال النصف الثاني من هذا القرن المذكور.

لكن هذا التحديد الزمني هكذا لا يعني عدم الالتفات، ولو بإلماحة تفصيلية سريعة، إلى الوراء قليلاً: إلى القرن التاسع عشر ثم إلى النصف الأول من القرن العشرين، قبل الدخول إلى تفصيل أوضح بخصوص مستجدات أوضاعها في النصف الثاني من القرن الأخير.

-٣-

تبدو فعالية الكتابة في القرن التاسع عشر كأنما هي محاولة لامتصاص المحصلات الناجمة عن الصدمة التي سبّبها قدوم الغرب المستعمر بدءاً من حملة نابليون على مصر، حيث انصبت وظائفها على عملية إحياء للتراث من جهة –التراث الشعري والأدبي إجمالاً– وعلى محاولة لمجاراة الغرب في هذه الميادين الأدبية تخصيصاً من جهة ثانية، وذلك بأسلوبين اثنين:

١– المضاهاة عن طريق (الاستعراض الضدي) المستند إلى عبقرية اللغة العربية وتقليد نماذج مختارة مما ظهرت

فيه تلك العبقرية اللغوية في الفترات الذهبية للحضـــارة العربية الإسلامية.

٢- تقليد مالم تعرفه العربية من أجناس أدبية لدى الغــرب. وقد جاءت محصّلات ذلك التقليد متّسمة بالفجاجة الفنية، ونبرة الوعظ الأخلاقي الإنشائي.

على أن نمطاً آخر من الكتابة ذات الطابع الفكري -الــديني خصوصاً- قد ولد أيضاً تحت تأثير جملة من المحرضات التـــي أثارتها حملة بونابرت في مجتمع غارق في مخلّفـــات عصـــور الانحطاط.. كما أثارها انهيار دولة محمد علي باشا- بتطلّعاتهـــا السياسية والتصنيعية والعقلية- بين فكي كماشة استشراء التخلف العثماني المنفلش، والأطماع الغربية الاستعمارية المتفاقمة.

ولعلّ أبرز من مثّل أو قاد النهج الجديد في الفكـــر الـــديني، الذي أراد لعب دور أقـــوى فـــي اليقظـــة السياســـية واليقظـــة الاجتماعية وتوجهاتهما، هو الإمام محمد عبده في مصر، وعبـــد الرحمن الكواكبي في سورية.

وما يجب قوله هو أن فعالية الكتابة ظلت هامشية في القرن التاسع وبدايات القرن العشرين من كافـــة الجوانـــب: الوظيفيـــة والفنية والفكرية، ولم تكن تأثيراتها لتمتد -سلباً أو إيجاباً- خارج حدود شريحة (الأنتلجنسيا) الضعيفة إلا بما يكاد لا يذكر.

-٤-

في النصف الأول من القرن العشرين تبدو فعاليـــة الكتابـــة كأنما أخذت أبعاداً جديدة تماماً: فـــي كيفيـــات الأداء كمـــا فـــي الوظيفة. غير أن سمة التبعية تظل سمة ملازمة لها. فهـــي قـــد حققت هذه النقلة، ليس في سياق تطور موضوعي عام، بل فـــي

سياق تأثير ازدياد معرفة أفراد (الأنتلجنسيا) بالآداب والفلسفات والمناهج الفكرية الغربية. ودونما اتساق، ساهمت كثرة المطابع، وذيوع الصحافة، ونتائج الحرب العالمية الأولى على الوطن العربي، ووطأة الاستعمار الذي صار شبه شامل لمختلف الأقطار العربية مع ما استدعاه ذلك من أساليب مختلفة في التعامل معه، في اتساع محدود لتأثير فعالية الكتابة خارج إطار شريحة (الأنتلجنسيا).

إن قضايا: النقد، والمرأة، والتعليم، والفكر التاريخي، والأشكال الشعرية، وأساليب التربية ودورها، وعلاقة الدين بالسياسة وغير ذلك من القضايا الاجتماعية والعقلية والسياسية والفنية والفكرية، ستملأ تاريخ فعالية الكتابة في النصف الأول من القرن العشرين، ولكن على قاعدة من وهمين أساسيين اثنين:

١- وهم إمكانية التكافؤ مع الغرب على أساس تقليده في فكره وأدبه وفنه من جهة، وفي أيديولوجياته التي تنتظم عليها أحزاب من جهة أخرى.

٢- وهم أن الكتابة تمتلك بذاتها مقدرة التغيير باتجاه تحقيق ذلك التكافؤ، عن طريق فعلها المباشر في المجتمع، وعلى أساس مخاطبتها للعواطف والرغبات قبل مخاطبتها للعقل.

ولعل هذين الوهمين قد عطلا، إلى درجة كبيرة، إمكانية تأسيس ناضج لإجابة فاعلة على ما يسمى لاحقاً: (أسئلة النهضة)، باستيلاد المبادئ الأولية اللازمة لإنجاز نسقٍ معرفي إبداعي عربي يتجدد في إطاره حضور ما هو حيّ من المواريث حاملةِ مقومات الهوية، عبر تمثل ماهو ضروري ولازم من

معارف الغرب وعلومه وفلسفاته وإبداعاته ومناهجه.. تمثلاً يحقق التكافؤ المذكور، وبقدر ما تتعزز فيه الخصوصية، وتتجلي حيوية مقوماتها.

على أن من التعسف بمكان أن نتجاهل قوة المعوقات المختلفة التي أدت إلى ذلك كله. كما إنه لابد من الإشارة إلى حقيقة أن الوهمين الأساسيين السابقين، بالاستناد إلى مجموع المعوقات التي ستتمظهر في أشكال وصيغ جديدة في النصف الثاني من القرن العشرين، سوف يظلان حاضرين بفعالية شديدة: على الأقل خلال العقود الأربعة التي تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي تحتاج إلى وقفة خاصة بها من حيث العلاقة المتبادلة بين معطياتها وبين فعالية الكتابة. أما العقد الخامس، أو عقد التسعينيات من القرن المنصرم، فإنه يمكن وصفه دونما حرج بأنه عقد اضمحلال الكتابة والثقافة معاً، أو عقد انهيارها لصالح ولادة (الجديد/ المجهول) القادم.

وهذا –كما نخمن– يعيدنا إلى نقطة البدء بخصوص تحديد ماهية فعالية الكتابة ومفهومها الآن. ويطرح علينا بقوة وجوب التفكير تحليلياً– وبأقصى شروط الموضوعية– في مستجدات العملية الاجتماعية التي خلقها تراكم التغيرات العالمية وانفجاراتها الأخيرة في سائر الميادين، كيما نتمكن من استجلاء حدود الإجابة على أسئلة من نوع:

- من هو الكاتب، من منظور التغيرات العالمية المذكورة، وانفجاراتها المتلاحقة؟!
- ماهو الجديد في مفهوم الكتابة ذاتها؟! وإلى أي مدى قد يغير من طبيعتها ووظائفها السابقة الشائعة؟!

- وبالتالي ماهو الدور الحقيقي للكاتب (الجديد) في العملية الاجتماعية ومستجداتها المترابطة مع متغيرات العالم التي هي ذات سمات حضارية جذرية... ونجازف بالقول إنها انتقالية؟!

إن ثمة جديداً يولد في ما يخص (فعل الكتابة) عموماً. وفي سنوات قليلة قد يكون كاسحاً، وإن يكن لا يزال بالنسبة لنا أوّلياً وبسيطاً، وربما غير مُدرَكٍ بالقدر الكافي. ويجب الاعتراف بعدم مقدرتنا على الإحاطة بطبيعة هذا (الجديد) وتأثيراته بالغة التنوع والعمق على مختلف التركيبات المجتمعية البشرية: سائدة كانت أم مسودة، وعلى مختلف نظم الوعي الإنساني، ونُظُم الرؤيات الاعتقادية، ونظم القيم، وأساليب العيش وكيفياته.. وباختصار: على تركيب الوجود الإنساني كله، لصالح علمٍ مُحتكَر (وتقديسه) في ذاته، وفي تطبيقاته التقنية كمصدر (للقوة)، رغم التحولات الاندفاعية المتسارعة في معطياته، ورغم عجزه عن الإجابة على أسئلة الوجود الأساسية، وبالتالي: رغم فقدانه لأية سمة روحية بأي معنى كان!.. لذلك كله نرى أن محاولة الإجابة على تساؤلاتنا السابقة وما يتفرع عنها ستكون– الآن، على الأقل –محاولة فقيرة المنطلق والنتائج، هذا إن لم تكن عملاً مغلوطاً من الأساس، لأنها تتناول وضعاً مستقبلياً شديد الغموض ومن موقعٍ هو في حقيقته بالغ التخلف! لكن اهتزاز صورة (فعل الكتابة)، وفقاً لما تقدم، لا يعني انتفاء وجودها أو انتفاء وظائفها حسبما أوردنا في بداية هذه المقالة، ذلك أننا –في نهاية الأمر– نظل مرتهنين لطرائق تفكيرنا التي نشأنها عليها، وللمفاهيم المتولدة عنها، بهذا القدر أو ذاك أياً كان مدى اقترابنا من عتبات (الجديد) سابق الذكر، سواء كان ذلك الارتهان وسيلة فهم لهذا (الجديد) أو آلية دفاعٍ ضد مخاوفنا منه

ومما نخمنه من سلبياته أو أضراره.

وربما يعيدنا ذلك الارتهان إلى وجوب النظر من جديد في حقيقته دور الكاتب ووظيفة الكتابة في العملية الاجتماعية خلال النصف الثاني من القرن العشرين: وفقاً لما تكشّف بالفعل على المستوى العالمي وانعكاساته المحلية، لا وفقاً لما كان يثيره صراع الأيديولوجيات آنذاك من غبار الادعاءات، أو يسبغه على الأوهام من الأقنعة التي كان يدّعي لها أنها لبُّ الحقيقة. ومالم نستوعب جيداً محصلات الدرس الذي كان فإننا لن نكون قادرين على فهم ماهو متوقع أن يكون.

-٥-

من المؤكد أن الحرب العالمية الثانية كانت مفصلاً رئيساً في التغيرات المتواترة لأوضاع العالم في ظل النمط الحضاري الرأسمالي الراهن. فهي قد أزالت المتروبولات الاستعمارية القديمة وأنشأت بدلاً منها نوعاً من الهيمنة الامبريالية الجديدة بقيادة أمريكا ومباشرة بدأت المرحلة التي عرفت باسم (مرحلة الحرب الباردة) بين مجموع القوى الرأسمالية الليبرالية وبين مجموعة الدول التي قادها الاتحاد السوفييتي السابق وعرفت باسم (منظومة الدول الاشتراكية).. وعلى هامش هذا الوضع قام استقلال مجموعة كبيرة من الدول التي كانت مستعمرات سابقة، والتي كان عليها أن تواجه المزيد من المشكلات القديمة والجديدة المتفاقمة التي من أبرزها: مشكلات التنمية، ومشكلات الدفاع ضد أشكال الهيمنة والابتزاز وما يقتضيه ذلك من تسلح وعسكرة واستنزاف موارد ضعيفة في الأصل... إلى آخر قائمة المشكلات الطويلة التي تدخل بقوة عميقة التأثير في نسيج

الوجود المجتمعي وحركية العملية الاجتماعية. ومن بين هذه الدول بالطبع مجموعة الدول العربية.

وما يعنينا هنا هو ما إذا كان للكاتب –وللكتابة بالتالي– دور واضح وحقيقي في العملية الاجتماعية عندنا؟! وهل كان لذلك الدور أثر أو تأثير فاعل في تلك العملية، وفي اتجاهات سيرورتها ومصائرها؟.. وإذا كان ذلك الدور والتأثير موجودين فكيف يمكن أن نستقرئهما الآن؟! علماً بأن طرح مثل هذين التساؤلين ما كان يثير في نفس من يسمعهما أو يقرؤهما، قبل أقل من خمسة عشر عاماً، إلا الدهشة والاستغراب تجاه السائل، إن لم نقل: ما كان يثير إلا السخرية منه!

لقد تميز الصراع العميق والقاسي بين طرفي الحرب الباردة بواجهة فظة من زيف الأيديولوجيا ودوغمائيتها ودجلها لدى الجانبين على حد سواء. وكان ذلك يترك انعكاساته المباشرة على (الثقافة الجديدة) –حسبما كان يفترض أنها يجب أن تكون– وعلى ممثليها من المثقفين والكتاب عندنا بمختلف اتجاهاتهم التي تنتهي في النتيجة: إما إلى الأيديولوجية الاشتراكية –التقدمية، طبعاً!– وإما إلى الأيديولوجيا الليبرالية– الرجعية بالطبع أيضاً!!– وذلك رغم ادعاءات الجميع بخصوص التراث والمعاصرة، والأصالة والتجديد، وما إلى ذلك!

وكانت الأفكار المنعكسة، أو المستنبطة من انعكاس (الصادرات) الأيديولوجية لطرفي تلك الحرب، تأخذ طابع اليقينيات القطعية وشبه المقدسة، دون أن تظهر أية إشارة قوية وموضوعية إلى أن ذلك كله ليس إلا صيغاً مجدَّدة للتبعية وفق الشروط الخارجية لا وفق الاحتياجات المعرفية الذاتية. ومن

الطرافة المرة أن التراث مثلاً لـم يُقـرأ مـرة فـي سـياقاته واشتراطات إنتاجه- سواء كله أو بعضه- بل قرئ ما قرئ منه مشذّراً بوجه عام، وبدلالة (الصـادرات) المفهومـة الليبراليـة الجديدة المنافقة، وبالمعـايرة عليهـا، أو بدلالـة (الصـادرات) المفهومية التقدمية الاشتراكية الدوغمائية المتحجرة، وبالمعـايرة عليها.. والشواهد على الحالين تكاد لا تحصى.

وتلك اليقينيات، القطعية وشبه المقدسة، لم تكن هي أسـاس معرفتنا (للآخر) وحسب، بل إنها أيضاً -في قطعيتها وقداسـتها تلك- كانت تحيل عملية الثقافة إلى كتابة هشة ومصـنّعة تعيـد إنتاج "الأيديولوجي" الوارد، وتعممه معرفياً من خارج، فتصـير (الثقافة الجديدة) بذلك -وعلى اعتبارها قضية حفـظ نصوصـي للأيديولوجي.. وعن ظهر قلب، كما يقال -أساساً موجِّهاً للعملية الاجتماعية من أجل (تحقيق النصر!)، وإنجاز التكافؤ الحضاري العام مع (المتقدمين!) عبر مسارات بالغة المحدودية والضيق.

لقد كانت(الثقافة التقدمية) الواردة من المركـز الاشـتراكي الماركسي تُعنى بإخضاع سائر الإيمانات الإنسانية لفكرة واحـدة شديدة البساطة والسطحية هي:

-حتمية الانتصار السـريع للاشـتراكية بفعـل (الجبريـة التاريخية) المصونة في (الكيشيهات) الأيديولوجية المحفوظـة.. فالانتقال الجبري الاشتراكية، على أنقاض النظـام الامبريـالي المتهافت، هو (سمة العصر!). وداخل عملية هذا الانتقـال فـإن المجتمعات المختلفة -مجتمعات العالم الثالث، أو "العالم النـامي" بتسمية أكثر تهذيباً وتضليلاً- ستتحرر تماماً، وتحقـق هويتهـا وخصوصية وجودها القومي والحضاري.. إلى آخره. وبالطبع،

عبر اندماجها بالمركز الماركسي الذي يقود العالم نحو السلام والبحبوحة!

وهنا، لم يكن همّ الكتابة عند أتباع هذه الأيديولوجيا غير إعادة إنتاج هذه الفكرة الرئيسة ومشتقاتها بمختلف الأشكال الفنية وغير الفنية مع النظرة العدائية والاتهامية المسبقة لما عداها تجاه أي موضوع كان.

أما (الثقافة الليبرالية) الواردة من المراكز الامبريالية، وخصوصاً من أمريكا فقد لعبت باتجاهين اثنين، لتجيير مستجدات الوعي العام لصالحها لدى شرائح واسعة في مختلف المجتمعات العربية على قاعدة من (الشرقنة) المنجزة عبر جهد قرنين ونيف من فعالية (الاستشراق)، ومن (الغربنة) البديلة التي تمّ تبنيها غربياً منذ مطالع القرن العشرين، ودائماً من خلال الكتابة والكتاب:

-الاتجاه الأول هو تحريض نمط من النزوع الديني- رداً على إلحاد ثقافة التقدم!- لدى أفراد الشرائح المجتمعية العربية سابقة الذكر. لكنه نمط يقوم على إعادة إنتاج فقه يلائم المصالح الغربية ويعزز إمكانية تقبل فعلها العام.. كما يقوم على تعميم الحفظ النصي المسطح لخليط من النصوص المقدسة والمدسوسة والمختلقة، بما يساعد على إعادة إنتاج وعي مستكين ومتقبل للخرافة.. وبذلك تتم المصادرة على استعمال العقل المتفتح الذي يُعنى بإعادة إنتاج مدلولات النصوص الصحيحة إنتاجاً يعين على تفتح الحياة الاجتماعية، ويصون المصالح العامة والخاصة للناس جميعاً في سياق السيرورة التي (يجب أن) تنتهجها العملية الاجتماعية أصلاً.

–الاتجاه الثاني هو تصدير فائض من إنسانوية زائفة، ومطرزة بالكثير من التمويهات البراقة جداً في مختلف ميادين الحياة.. والممتلئة نفاقاً ودجلاً بالطبع. وتلك الإنسانوية الزائفة اعتمدت أساساً أو محوراً لها (حرية الفرد) المطلقة من حيث هي شديدة الإغراء بالقياس إلى (حالة محقِهِ!) في ظل بيروقراطية (الاشتراكية) السائرة إلى نصرها الجبري المزعوم، كما سبق أن قلنا.

وبين منعكسات ثقافتي الطرفين المنهمكين في مقتضيات حربهما الباردة، كانت أنساق ثقافية عرضية تتلملم بتوليفات خاصة ومتناقضة غالباً.. إذ نرى مثلاً استنفار أمجاد التاريخ للاستعانة بها في مواجهة (قولية) لثغرات الحاضر اللاهث خلف اللحاق (بما يجري.. هناك!) مع تشظٍ حاد ومتفاقم في التوليفة الواحدة بين تعديلات متفاوتة لصيغة (الجبرية التاريخية) وبين تعديلات متذبذبة للإنسانوية البراغماتية الليبرالية في الاتجاهين الرئيسين اللذين لعبت عليهما مع إكمالاتهما الكثيرة.. وفي الوقت ذاته تقتنص التوليفة الواحدة من هنا وهناك مفهومات –ربما تكون متضاربة المنشأ والدلالة أصلاً –لصياغة مشروعات أيديولوجية هشة يعبر بها عن كيفيات رؤياتهم للتحرر القومي، بما هو الهاجس العربي الأكثر إلحاحاً وضغطاً.

إن صيغ الوعي العام المنبنية على ذلك كله –مع ملاحظة مدى تشابكاته وتداخلاته وتعارضاته– قد أنتج سلطات بطريركية تولت العمل باستمرار على تعديل أو تطويع مختلف الأيديولوجيات: الوافدة والمولفة والمستولدة كيما تعيد إنتاج مجتمعاتها (على مثال صورتها) ومقاسات مصالحها، حيث يصبح خطابها السياسي بدوره أساساً وإطاراً لفاعلية الكتابة

عموماً.

وهكذا، ودائماً –خلال عقود الحرب الباردة– ظلت الثقافة الجديدة وتعبيرها الكتابي يتسطحان إجمالاً ويتذبذبان بصورة متصاعدة نحو أقصى حدود الهشاشة، إذ تصير الثقافة جملة أوهام عن الماضي مُنشبكة في جملة أوهام عن الحاضر بما هو صورة في مرآة (الآخر)، والكل يعوم على جهل رافض للتراث والتاريخ من غير قصد –إذا شئنا أن نأخذ بحسن النية– وعلى جهل بأصول ثقافات القوى الكبرى المتصارعة وتواريخ نموها وترابط أيديولوجياتها بتلك الأصول وباشتراطات تلك التواريخ. أما الكتابة فتصير إعادة إنتاج –فكري وفني– للتوليفات الأيديولوجية التي سبقت الإشارة إليها، أي إنها تصير فعلاً تسييسياً مباشراً، في أطر تجليات السلطة البطريركية ورغائبها وفعاليات هيمنتها.. مع الاحتفاظ بالاستثناءات القليلة نسبياً ككمّ والضعيفة من حيث التأثير.

إن دور الكاتب في العملية الاجتماعية، ذات السيرورة المحكومة بكل تلك المنعكسات الناجمة عن الحرب الباردة، هو دور لا ريب فيه من حيث هو (صوت الأيديولوجيات التخلفية وقلمها)، وبالتالي من حيث هو صوت السياسة –التابعة بالقوة– وقلمها، سواء كانت جماعته في السلطة، أم كانت معارضة، أم واقفة (على الحياد!!).

وبعبارة أخرى موجزة: كانت الثقافة –والكتابة تعبيرها– محتواة كلياً في السياسات المختلفة، فكرياً وفنياً وجمالياً ووظيفياً.

-٦-

في العقد الأخير من القرن العشرين ثبت أن (ثقافتنا الجديدة) كانت قد أنشئت على فراغ. وكان عليها، هي وتعبيراتها الكتابية،

والوعي الأيديولوجي المتولد عنها والحامل لها، أن تأخذ في الاضمحلال والتبدد. فقد شهدت بداية العقد المذكور انتهاء الحرب الباردة بتفكك طرفها الاشتراكي، وانهيار أيديولوجيته وهزيمتها، واختلال الوضع الدولي اختلالاً شديداً، وانكشاف ألاعيب مركز الأخطبوط الامبريالي، وسفور أنياب أيديولوجيته المجدّدة عبر كتابات منظريها من أمثال فوكوياما وهنتنغتون على وجه الخصوص.

لقد تمت هزيمة الأيديولوجيات جميعاً باستثناء التيار الليبرالي العولمي الجديد، وهو تيار تجاوز التيارات الليبرالية القديمة تجاوزاً هائلاً، سواء من حيث فلسفته في الهيمنة أم من حيث مرتكزاته ووسائله التقنية والعلمية والإعلامية.. أم من حيث مقدراته العسكرية والاقتصادية، وطابع فعاليتها الابتزازي التدميري الكوني الذي لا نظير له من قبل.

إن هذا التيار هو التعبير الأيديولوجي والعملي لثورة (الأنفوميديا) –الثورة التكنوإلكترونية. بتسمية مبتسرة –حيث يمكن القول الآن: إن هذا، ومعطياته القائمة والمحتملة في المدى المنظور، هو أقصى ما وصل إليه التطور العام للنمط الحضاري الامبريالي، غير أن ما يعد به الأمر الواقع، وما تعد به التطورات السريعة المدوخة أو تهدَّد به البشرية على حد سواء، ربما يسمح بقول مضاف أيضاً وهو: إن ما يجري هو مقدمة غامضة، قليلاً أو كثيراً، لانتقال مجهول نحو تغيير حضاري جذري أشد غموضاً، قد يحمل للإنسانية بعضاً من آمال الإنقاذ أقل بكثير جداً مما يحمله من تهديدات كارثية شاملة.

إن تغييراً شاملاً يجري الآن في وسائط تحصيل المعرفة

وفي أساليب هذا التحصيل، لكن طبيعة الثقافة ذاتها تتغير بذلك. وفي الوقت ذاته يُصرَّ الباحثون –أو أكثرهم اطلاعاً على ما يجري، وموضوعية في استقراء نتائجه المحتملة– على أن الهويات القومية والخصوصيات الحضارية لمختلف الأمم قد تكون موضوعة قيد التدمير، وكذلك حال سيادات الشعوب على أرض أوطانها أو في محاولاتها الحيوية البيئية. وبعبارة أخرى: إن التنوع في كيفيات الوجود الإنساني، والذي يعبر عن غنى وحدته، هو ذاته قيد التدمير، لصالح تعميم نمط مسطح ومبتذل هو نمط الحياة الأميركي المنشبك مع أسوأ ما للصهيونية من سمات. وربما كان الهدف الأعلى للتيار الليبرالي العولمي الجديد هو خدمة مصالح حفنة ضئيلة العدد من عائلات ملوك المال عبر عزل كل كائن إنساني عن محيطه وتجريده من انتمائه إلى أية ذاكرة حضارية قومية، وإلى أي منظومة قيم باستثناء (قيم السوق) حيث يصبح منتجاً /مستهلكاً نمطياً وليس له من تطلعات رؤيوية أو اعتقادية روحية خارج ذلك، بل يصير همه ومثله الأعلى أن يشبع غرائزه في عزلته البائسة تلك عبر ما يصدر إليه من معلومات وصور تحرضه على الانعمار في البحث عن وسائل هذا الإشباع.

على أنِ من الإنصاف القول: إن فعالية مقاومة هذا التوجه المهلك مُستنفرة على امتداد الكوكب كله، وقائمة بمختلف الوسائل والأشكال.

وأياً تكن الحال، فإن السيرورات الخاصة بالعملية الاجتماعية في كل صقع من أصقاع الأرض– وخصوصاً في البلدان المنهوبة، ومنها بلداننا العربية– تشهد مزيداً من التحديات التي تضيفها مشكلات جديدة، ومن نوع مختلف كلياً، على المشكلات

القديمة التي تفاقمت خلال قرن دون أن تجد بوادر حلول حقيقية لها، ربما لأن وعيها من قبل أصحابها كان زائفاً ولم يكن حقيقياً!

والمهم، إزاء هذه الصورة المختزلة لما كان في النصف الثاني من القرن العشرين، ولما نتج عنه على المستويات المحلية والعربية والإقليمية والعالمية، أفلا يجب أن نتساءل من جديد عمن هو الكاتب؟ وعن طبيعة الكتابة الجديدة؟ وعن دورهما ووظيفتهما في العملية الاجتماعية وهي تواجه مجموع المشكلات القديمة والجديدة المشار إليها أعلاه، فتغير من اتجاهات حركتها ومن أهدافها وطبيعتها وأساليبها ما يعيق نجاح استجابتها الناجعة لجملة التحديات المطروحة عليها الآن؟!..

إنها أسئلة تعيدنا إلى البداية التي بدأنا بها من أجل تمحيص ما لابد من تمحيصه مما نقدّر أنه بديهي بخصوص طبيعة الكتابة من أجل الارتقاء بها، وظيفة وأسلوباً، لفصل الزائف عن الصحيح في وعينا لذاتنا داخل مستجدات حركة العالم.

❑❑